ملف العدد

المباني القرآنية والمعاني الدينية
في شعر مفدي زكريا

محطّات بارزة في حياة الشاعر مفدي زكريا

أ/د. عبد القادر سلامي
- جامعة الجزائر-

المقدمة:

ولد الشاعر الأديب مفدي زكريا في أبريل (نيسان)من عام 1908م أو سنة 1913م على الأرجح ، في بلدة بني يزقن بغرداية حيث بدأ تعليمه القرآني في مسقط رأسه، وفي السابعة من عمره انتقل إلى عنابة ومنها إلى تونس، تحصّل على شهادة الثانوية (بالخلدونية) ومنها إلى جامعة الزيتونة.ناضل-رحمة الله عليه- في الحركة الوطنية وجاهد في الثورة التحريرية.دخل السّجن خمس مرّات كان آخرها في 1959م، حيث فرّ منه ملتحقاً بجبهة التحرير الوطني في الخارج.توفّي مفدي زكريا بتونس في 17 أوت(آب) 1977م ودفن في مسقط رأسه بغرداية، بعد أن خلّف آثاراً شعرية وملحمية يشهد له التاريخ الأدبي الحديث والمعاصر فيها بالريادة، منها:(1) اللّهب المقدّس-طبع في بيروت سنة 1961م وبالجزائر سنة 1982م.

---

1) ينظر: محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، اتجاعاته وخصائصه الفنية، ص: 11 /100 /258 /101 / 260 وأنيسة بركات:أدب النضال في الجزائر من سنة 45 حتى الإستقلال، ص206، وأحمد توفيق المدني: حياة كفاح، ص30،156.ومحمد قنانش: الحركة الإستقلالية في الجزائر،ص35 - 59 وبلقاسم بن عبد الله: مفدي زكريا شاعر مجد وثورة،ص:190.

- إلياذة الجزائر - بالجزائر سنة 1972م ، وهي ملحمة بها 1001 بيت من الشعر، وطبعت ثلاث مرّات.

- من وحي الأطلس-بالرباط سنة 1976م.

-أمجادنا تتكلّم سنة 1973م.

وتسعى المداخلة الموالية إلى الوقوف على أهم محطّات حياته البارزة تربية وعلماً وآثاراً.

1 -في ذكرى مفدي زكريا وأهمّ محطّات حياته:

1 -مولده و أسرته:

هو زكريا بن يحيى بن الشيخ الحاج سليمان و لقبه آل الشيخ ولد سنة 1913م على الأرجح فهو التاريخ الأنسب لأعماله الأدبية، في واحة ميزاب بقرية بني يزقن بالجنوب الجزائري، و لقد كانت تربط جده بالسلطة العثمانية معاهدة حماية ظلت سارية المفعول طوال عهد الاحتلال الفرنسي حتى سنة 1880م. تنحدر أسرته من بني رستم الذين أسسوا مدينة تيهرت في القرن الثاني من الهجرة، ودولة بني رستم هي أول دولة جزائرية ذات سيادة كاملة غير مرتبطة بتبعية، لا إلى الحفصيين و لا إلى بني زيان دامت زهاء قرنين و تحقق على عهدها لأول مرة في التاريخ توحيد المغرب العربي الكبير.[1]

2 -ثقافته:

أسهم مفدي زكريا إسهاماً فعالاً في النشاط الأدبي فكان لقبه الأدبي ابن تومرت، ولقبه النضالي شاعر الثورة الجزائرية.أما عن إنتاجه الشعري، فنقول عن مفدي زكرياء و عن عصاميته مقرا بفضل أستاذه عليه: «و أمّا الشعر،فأنا فيه أستاذ نفسي،غير أني أعرض بضاعتي على أساتذتي رؤساء

1) محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنية، ص11 - 12.

البعثة الميزابية، و لقد قرأت الزحافات»* والعلل والدوائر على شاعر الخضراء العبقري:الشاذلي خزندار[1]، و لعل أول باكورة من بواكر إنتاجه هذه القصيدة التي مطلعها :

رفقا بلادي فأنت الكون أجمعه *** لك الفؤاد و ما في الجسم من رمق

لـولاك كنت هالكا فـان *** و من دماء و من روح و جثمان

و لعل في هذين البيتين ما يدلّ على حداثة الشاعر في نظم الشعر و بداية تذوقه له.[2]

التحق مفدي زكريا بالكتّاب كغيره من أبناء القرية ليحفظ القرآن الكريم ويتعلم ما تيسر له من علوم الشريعة الإسلامية، و لما بلغ السابعة من عمره التحق بأبيه إلى مدينة عنابة، حيث كان مركز تجارته فظل يتردد بينها و بين مسقط رأسه حتى تمكن لبني ميزاب اللجوء إلى أبواب الحياة الجديدة ليأخذوا أسباب النهضة الثقافية.

و كان مفدي من بين أفراد البعثة العلمية التي قصدت تونس للأخذ من مناهلها العلمية تحت رئاسة أساتذة أفاضل أمثال: الشيخ محمد الثمين والشيخ إبراهيم بن الحاج عيسى وصالح بن يحي و إبراهيم أطفيش، وعلى يد هؤلاء درس مفدي زكريا دروسا دينية وأخرى في الوطنية.

كما التحق مفدي بمدرسة السّلام القرآنية و مكث فيها سنتين يتلقى مبادئ العربية والعلوم الكونية على ثلة من الأساتذة من بينهم الشاذلي الموالي وعبدالعزيز الباروني ومن هذه المدرسة تحصل مفدي على الشهادة الابتدائية في العربية ثم دخل إلى المدرسة الخلدونية و فيها درس الحساب و الهندسة والجبر و الجغرافيا و التاريخ الإفريقي، ثم التحق بجامع الزيتونة و فيه سمحت له

1) أنيسة بركات: أدب النضال في الجزائر من سنة 45 حتى الإستقلال، ص206.
2) أحمد توفيق المدني: حياة كفاح، ص156.

الفرصة أن يطلع على كتب ذات أهمية بالغة في النحو و البلاغة و الأصول و من بينها كتاب «الشعر و الشعراء» لابن قتيبة الدينوري(ت276هـ)،و «فقه اللغة» لأبي منصور الثعالبي(ت 429 هـ)، كما كان مفدي زكريا يحضر الندوات التي كان يديرها الأديب العربي الكبادي في الأدب في مدرسة الترجمة للغة العربية العليا، ثم التحق بالمدرسة الخلدونية مرة ثانية ونال الشهادة الثانوية من هناك.

يقول عنه صديقه «سليمان بوجناح» الذي كان طالبا معه أنه كان مثالا للذكاء وحضور البديهة ومثال إعجاب أساتذته فيجد منهم الإعجاب والتشجيع و أنهم كثيرا ما يكونون في حصة من حصص الدراسة و يعالجون قضية ما فيطلب الأستاذ من مفدي زكريا أن يقول فيها شعرا فيقول في الحال فيرتجل أبياتاً.يقول مفدي زكريا عن نفسه: شرعت في قرض الشعر سنة 1925م أي في الثانية عشرة من عمري بقصيدة في رثاء كبش الفداء، بعيد الأضحى متأثرا بمعذب أبي العلاء المعري(ت145 هـ) و أتذكر مطلعها:

لهفي على شاة لنا قد قيّدت *** للذّبح وهي نقية الأدران

استضعفوك فلذ لحمك عندهم *** هلا استلذوا لحم ليث قان

و لعل باكورة إنتاجه الشعري هذه القصيدة التي أكد الأستاذ العربي الزبيري على أنها نشرت سنة 1925 م بجريدة تونسية ،هذا مطلعها[1]

رفقا بلادي فأنت الكون أجمعه *** لك الفؤاد وما في الجسم من رمق

لولاك كنت هالكاً فانٍ *** ومن دماء ومن روح وجثمان

و الملاحظ في هذين البيتين خلوهما من الوزن و القافية و هذا مما يجزم أنهما يعبران عن حداثة الشاعر وبداية تذوقه للشعر.

و ما يلاحظ على أساتذته أنهم لم يكتفوا بتلقينه دروسا في اللغة و آدابها والشريعة و مقاصدها فحسب،و إنما كانوا حريصين على تكوينه سياسيا ودينيا

1) المرجع نفسه، ص156.

وثقافيا، ولقد كان لتلك التربية انعكاسها على مفدي وكان بذلك الشاب الوطني والرجل الثوري والشاعر الصارخ في وجه أعداء الوطن والعروبة والإسلام، بالكلمة الثائرة والطلقة الشجاعة، ويضاف إلى جهة أساتذته نشأته في حضن عمه الشيخ صالح بن يحي الوطني الثائروأحد الأقطاب الثلاثة الذين أسسوا الحزب الدستوري التونسي وغذوا الحرب الطرابلسية، كما فتح مفدي زكريا عينيه على شخصية الزعيم الوطني الكبير «عبد العزيز الثعالبي» الذي كان يتردد على بيتهم باستمرار بحكم الصداقة التي كانت تربطه بالشيخ صالح، ولقد تشرب الإنتاج الإحيائي الوارد من المشرق العربي ممثلا عند أعلامه من أمثال شوقي وحافظ والرصافي وغيرهم كما نجده على صلة وثيقة بمعاصريه كأبي القاسم الشابي في تونس، ورمضان حمود في الجزائر.

وفي أحضان البعثة الميزابية في تونس تلقى مفدي دروساً في الوطنية والدين على رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، يعلّمون الناشئة بأفعالهم قبل أقوالهم ويقدمون النموذج الحي بسلوكهم قبل دروسهم ويقول في هذه البعثة الشيخ عبد الحميد بن باديس بعد زيارته إلى تونس «إن الشعور الوطني إذا أفعم القلوب لا بد أن ينبعث فتنشق له الحجارة وتنفجر منه الأنهار وها هم أولاد إخواننا الميزابية يسري فيهم شعور صحيح، فولعوا بالتقدم فأخذوا يتمسكون بأسبابه بجد واجتهاد وأخذوا في طريق التجارة حتى ملكوا أزمّتها وصاروا العضو القوي الإسلامي بالجزائر فيها. وها هم اليوم يسعون في طريق العلم ويرحلون في طلبه وأخلق بهم أن ينالوا منه ما يريدون».[1]

أما عن حياته النضالية، فقد انخرط مفدي في سلك الشبيبة الدستورية بتونس عام 1922م،ثم دخل إلى الجزائر وانخرط في حزب نجمة شمال أفريقيا الشمالية عام 1926م، ولقد استقطب هذا الحزب فئة كبيرة من العمال والطبقات الشعبية، فكان مفدي لسان هذا الحزب ذو المبدأ التحرري وبعد أن

1) المرجع نفسه، ص30.

عمدت القوات الاستعمارية إلى حل هذا الحزب» تأسس حزب الشعب الجزائري ليسد هذه الثغرة و ليقوم بالمهمة التي كانت تنتظر من تنظيم، و توعية، وبثّ روح الكفاح والتضحية» [1] ثم انتخب أمينا عاماً سنة 1936م، ورئيسا لتحرير جريدة الشعب، في 29 أوت1937م زجّ مفدي زكريا في سجن بربروس وذلك بتهمة التآمر على أمن الدولة الفرنسية، إلاّ أن هذا الأمر لم يحط من عزيمة الرجل و من وطنيته وقوته الشعرية والفكرية، ذلك لأن « السجون هي المدارس التي يتخرج منها الرجال الذين يقلبون صفحات التاريخ، وفي ظلمته يظهر بصيص الحضارة والتمدن، ومن غرفه تتزعزع الثورات، وفي هدوئه تؤسس الدول».[2]

إلا أن مفدي زكريا لم يرض أبدا بالصراعات التي حدثت داخل هذا الحزب، وبالتالي تناسي الهدف المنشود، ومصلحة الشعب ولقد ترجم مفدي زكريا هذا من خلال قصيدة قال فيها: [3]

ويا خطب ارفقا بهذي البلا *** د،ألم ترى يا خطب،أحمالها؟
ألم ترها بين جهل،و فقر *** تجرر للموت أذيالها؟
وما فعل الغشم في أمرها *** وقد فوضت فيه جهالها؟
فلن تستحق العلا، أمة *** تولي القيادة، أرذالها؟
وكيف تريد البقا، بلا *** د تعد الضفادع أبطالها
وليست ببالغة أمرها *** وجلادها،صاردلالها

1) محمد قنانش: الحركة الإستقلالية في الجزائر، ص35 - 59.
2) حواس بري: شعر مفدي زكريا –دراسة وتقويم، ص:37.
3) مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص: 275 - 276.

و بعد أن عمدت السلطة الفرنسية إلى حل نجمة أفريقيا الشمالية، وتأسيس بدلا عنها حزب الشعب بقي أمينا عاما.ثم واصل نضاله في حزب الانتصار للحريات الديمقراطية بدلاً عن حزب الشعب بعد حله من قبل السلطة الاستعمارية.ثم أخيرا في منظمة جبهة التحرير عام 1954م في بداية الثورة «معلنة عن ميلاد الإنسان الجزائري الجديد، وفاتحة صفحة جديدة من النضال الجزائري، إنها ثورة في كل شبر من تراب الجزائر، إنها النهاية المؤكدة لحكم الاستعمار»[1]، فهي ثورة قامت تحت لواء حزب واحد هو حزب جبهة التحرير الوطني، الذي ارتمى مفدي زكريا في أحضانه،فثورة نوفمبر لم تكن وليـــدة شهـــر نـــوفمبر بـــل كانـــت وليـدة وعي قومي عام بضـرورة التخلص من شبح الاستعمار والتخلف الذي فرضه عليه»فليس ينجوا الشعب من الإستعمار أجناده إلا إذا نجت نفسه من أن تتسع لذل مستعمر، وتخلصت من تلك الروح التي أهلته للاستعمار».[2]

لقد واكب مفدي زكريا هذه الثورة بجميع انتصاراتها وبطولاتها و هذا ما ظهر جليا في كتاباته الأدبية فلم يكن لسانها الناطق فحسب، بل أن فضله يكمن أيضا في حدسه الوطني الذي بشّر بالثورة على الخاطرة والهمس.

دخل السجن من أجل النضال المرات العديدة، فهي في مجموعها سبع سنوات أفرج عنه بعد عام 1959م، ثم فر إلى المغرب فتونس حيث تعاون مع جهاز الحكومة الجزائرية المؤقتة في وزارة الأخبار.

و يزجّ شاعرنا هذه المرة بتهمة التآمر ضد أمن الدولة(29 أوت 1937م) ثم اعتقل يوم 12 أبريل 1956م،بتهم تعددت أسماؤها و ألوانها ما دام أنه شاعر الثورة و حاديها يغني لها و يتغنى بها، فأصبح من المؤكد أن يرهقه الاستعمار الفرنسي عذابا في السجون.فشاعرنا لم يكتف بأداء رسالته كشاعر و نشاطه

1) الوناس شعباني: تطور الشعر الجزائري، ص79.
2) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص31.

كسياسي في صفوف جبهة التحرير الوطني، وإنما كان يسعى سعيا حثيثا لكي تنال قضية الجزائر اهتمام الأشقاء.لذا كان يجوب الأقطار العربية للتنويه بالثورة و تحريكها في الضمير العربي. ففي سنة 1961م توفي الملك محمد الخامس بادر الشاعر لمواساة إخوانه المغاربة بقصيدة، وفي الوقت نفسه شارك في حفل تتويج الملك الحسن الثاني ولم ينس أن يذكر الثورة ليثير الهمم ويشحذ العزائم، وفي السنة نفسها انعقد مهرجان الشعر العربي بدمشق فكان مفدي يمثل الثورة ليسمع هناك صوت الجزائر الثائرة وفي طريقه إلى دمشق مر بالقاهرة ومكث فيها لمدة قصيرة، وبسبب تعكر صفو الجو على المؤتمرين بسبب انفصال سوريا عن مصر تحول إلى لبنان وهنا اغتنم مفدي الفرصة و طبع ديوانه الأول ديوان «اللهب المقدس». وحظي هناك بالتقدير و الاحترام إذ يقول: «أما لبنان فقد لقيت فيه من الحفاوة والإكرام ما يعجز عن وصفه قلمي» و عند عودته توجه إلى الكويت و منها إلى قطر ثم عاد إلى القاهرة ثم انتقل إلى ليبيا ثم إلى تونس. فجميع هذه الرحلات كانت من أجل الثورة و الوطن و لقد دل صدق الشاعر في أداء مهمته ذلك النجاح الذي تجلى في تلك الدعوات التي انهالت عليه تطلب إليه أن يحدثها عن الجزائر وثورتها، كما اغتنم الشاعر الفرصة والتقى بالفنانين ليعرض عليهم قصائده الثورية. وهكذا عاش مفدي لوطنه الذي أحبه بكل ما أوتي من قوة فكرية أو طاقة إبداعية ودهاء سياسي فقدم بذلك ما يعود على الثورة الجزائرية بما يفيدها من الهيئات العربية ويزيد من أهميتها في المحافل الدولية.

و بالإضافة إلى نضاله السياسي، عمل «مفدي زكريا»بالصحافة لأنه أدرك خطر العمل الصحفي خصوصا في المجلات والجرائد فهي أكثر الوسائل نشرا للوعي، وكشفا للحقيقة، وتوغلا في الأوساط الشعبية لتصبح الكلمة بذلك سلاح المثقف في وجه كل أنواع الاستعباد والاضطهاد، فعمل في إطار صحيفة الأمة والبرلمان والشعب والحياة، لتتعدى أعماله إلى البرامج الإذاعية التونسية، وكان هذا البرنامج عن أعلام ورجال الفكر والأدب في المغرب العربي.

وغداة استقلال الجزائر سنة1962، رجع مفدي زكريا إلى أرض الوطن ليواصل أعماله في الجزائر المستقلة، لكن سرعان ما عاد إلى تونس ليعيش فيها ما بين سنوات 1963 إلى 1969، ويتوجه بعدها إلى المغرب ليستقر فيها مترددا بين الحين و الآخر على الجزائر وتونس، مشاركا في الملتقيات والندوات الفكرية، ومنها ملتقيات الفكر الإسلامي التي كانت تقام في الجزائر سنويا.[1]

3 -شخصيته:

يعدّ مفدي زكريا من الشعراء الذين تميزوا بالإحساس المرهف والشفافية المفرطة التي جعلتهم يهتزون لكل المواقف ويتأثرون بكل الأزمات التي يمر بها الإنسان العربي ويطربون لكل خطوة يخطونها في سبيل الوحدة العربية. أمّا ما تميز به و تفرد به عن غيره فهو حبه للانتصار في كل المواقف فقد كان طموحا لا يخضع للذل ولا يحب الدنيء من الأشياء متواضع، لطيف، حسن المعشر. وظاهرة التحدي من المميزات التي عرف بها .

كان مفدي زكريا يحبّ المناظرات مع الفقهاء و قد كثر الجدل بينه و بين الشيخ إبراهيم بيوض، و عرف عن مفدي تنزهه عن القبيح عن السخافات والمناظرات التي لا طائل تحتها، فكان يعاف الهزل ويترفع عن القبيح من الأفعال والرديء من الأفكار ويسعى بدوره لينير الطريق إلى أبناء مجتمعه حتى لا تفوتهم فرصة الهجوم على العدو والرد عليه بالاتحاد والتضامن و ان حريصا على وحدة وطنه بكل ما أوتي من قوة فكرية وطاقة إبداعية. و من هذا القبيل عرضت رواية مسرح» الأوبرا» وكانت تهدف إلى تفريق الشعب الجزائري فكان مفدي لها بالمرصاد، إذ قدم مقالا ينقد فيه تلك المسرحية بعنوان نهضة جديدة لتفريق الشعب الجزائري فيقول في ذلك: « منذ أمد غير بعيد كنا نرى بعض صنائع الاستعمار مسخرين للقيام بأدوار هزلية في رواية لتفريق الشعب الجزائري..إلا أن هؤلاء الأبطال لم يجدوا مسرحا لتمثيل رواياتهم المخجلة فهدوا إلى ضروب

1) محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنية، ص100 - 101.

من المؤسسات ظاهرها فيه الرحمة و باطنها من قبله العذاب والخراب» [1] و بهذه المواقف يتضح لنا أن الشاعر كان بحق ذا شخصية صلبة المراس تتطاول على كل ما هو سخيف. وعاش وطنيا يخدم وطنه بكل ما أوتي من نظر ثاقب وفكر صائب و شعر مواكب.

4 -وفاته:

كان مفدي زكريا كثير الاتصال بصديقه الحميم الأستاذ شيبوب، وشاء القدر في لقاء أخير بينهما أن يجمع الله مفدي مع ثلة من زملائه في الجهاد أيام الثورة ومن هؤلاء الأستاذ محمد قنانش، والشيخ صالح بزملال في تونس 1977م.و على إثر سكتة قلبية انتقل مفدي إلى جواررربه يوم 17 أوت 1977م، بعد أن أدّى فريضة الحج مع زوجه، ولقد طلبت كلا من تونس والمغرب أن تتولى دفنه في أرضها إلا أن الجزائر أبت ذلك وجعلت الأرض التي أحبها ودافع عنها بكل قوة تحتضنه وبذلك دفن في مسقط رأسه بني يزقن.

و من الغريب حقا أن وفاة شاعر الوطن لم تسجل فاجعتها إلا بإعلان جد عادي خط بصفحة من صفحات جريدة الجمهورية، وقد أورد الصحفي بلقاسم بن عبد الله في كتابه: « مفدي زكريا شاعر مجد وثورة» ومفاده: « توفي أمس الأربعاء الشاعر مفدي زكريا بسكتة قلبية عن عمر يناهز 64 سنة، ذلك ما أوردته وكالة الأنباء التونسية. ولد الشاعر بالجزائر عام 1913م و زاول تعليمه بعدة مؤسسات تعليمية تونسية وخاصة بجامع الزيتونة وقد شارك في نهضة الثقافة التونسية بعدة محاضرات وبرامج إذاعية...و الجدير بالذكر أن مفدي زكريا كان يلقب بشاعر الثورة الجزائرية والمغرب العربي» [2]، وهذا بالصفحة التاسعة بجريدة الجمهورية بتاريخ:السبت 05 رمضان 1397م،الموافق ل 20 أوت 1977م.

1) المرجع نفسه، ص260-258.

2) بلقاسم بن عبد الله: مفدي زكريا شاعر مجد وثورة، ص:190.

5 -آثاره:

انطفأت شمعة الشاعر، ومضى مخلفا وراءه نتاجا شعريا و نثريا موزعا ما بين المطبوع والمخطوط ومنشور في الصحف والمجلات.ففي مجال الشعر صدر له ديوان «اللّهب المقدس» في طبعتين الأولى عام1961م عن المكتب التجاري ببيروت، والثانية عن وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية بالجزائر والديوان الثاني الذي صدرله بعنوان « تحت ظلال الزيزفون» عام 1965م عن دار النشر القومية بتونس، كما صدرت « إلياذة الجزائر في طبعات عدة نشرتها مجلة» الأصالة» و قد ألفها الشاعر بمناسبة الملتقى السادس للفكر الإسلامي الذي انعقد بالجزائر العاصمة عام 1972م، وترك إلى جانب ذلك هذه الأعمال الشعرية المطبوعة، أعمالا شعرية مخطوطة منها» أهازيج الزحف المقدس» وكان قد كتبها بلغة الشعب، التي تمثل المعركة السياسية في الجزائر من عام 1945م إلى عام 1954م،و» المعذب» و تمثل شعر الهوى والشباب، و» محاولة طفولة»وهي إنتاج الشاعر في شبابه.

أمّا في مجال النشر، فقد صدر له بمشاركة الأديب التونسي «الهادي العبيدي» كتابان هما «الأدب العربي في الجزائر» و يقع في أربعة أجزاء. و «أنتم الناس أيها الشعراء» و هو في النقد التحليلي، وبمشاركة الأديب التونسي «الحبيب شيبوب» له كتاب بعنوان «صلة الرحم الفكرية بين أقطار المغرب العربي الكبير»و بمشاركة المؤرخ التونسي « محمد الصالح المهيدي» صدر له كتابان، هما « تاريخ الصحافة العربية في الجزائر»، و «أقطاب الفكر بالغرب على الصعيد العالمي».

أما في مجال المخطوطات النثرية، فقد ذكر لنا الشاعر في ديوانه « اللهب المقدس» مؤلفات كثيرة في الأدب والتاريخ والتربية:نحو مجتمع أفضل، ست سنوات في سجون فرنسا، حواء المغرب العربي الكبير في معركة التحرير، أضواء على وادي ميزاب، قاموس المغرب العربي الكبير، العادات والتقاليد في المغرب

العربي الموحد الأدب الشعبي في الجزائر عبر التاريخ، الثورة الكبرى(رواية)، عوائق انبعاث القصة العربية، اليتيم في العيد(قصة)، مئة يوم ويوم في الشرق العربي، الجزائر بين الماضي والحاضر، مذكراتي.

والمعروف عن مفدي زكريا أنه كثيرا ما كان يرتجل بعض الأبيات الشعرية تحت ضغط الحدث أو المناسبة و هناك عدد من القصائد نظمها في ليلة واحدة أو أثناء جلسة واحدة،فهو إذن من القلائل الذين يأتيهم الشعر طواعية و كيف لا و هو صاحب قول « لست ممن يفتش عن الشعر،بل الشعر هو الذي يفتش عني».[1]

هذا و قد اعتقد كثير من الدارسين للأدب الجزائري أن مفدي زكريا لم يكن من الشعراء الذين كثر إنتاجهم الفكري، و تعددت دواوينهم الشعرية، و فاتهم أن للشاعر الفذ إنتاج أكبر ما يتصورون تناثر في الجزائر والمجلات الجزائرية والتونسية نثراً و شعراً.

مما تقدم نرى أن الشاعر مفدي زكريا عايش وسطا دينيا و في أسرة محافظة جعلته يلتهم تقاليدها الإسلامية العريقة و يتشبع بروحها التركية فهو حافظ للقرآن الكريم في سن مبكرة جدا، ومتعلم في المدرسة القرآنية الأهلية ، و أسرته منحدرة من ابن رستم الذين أسسوا (تيهرت)في القرن الثاني للهجرة ، أول دولة ذات نظام إسلام [2] ثم هو من بني يزقن و هي معروفة ب(المدينة المقدسة) هذه البيئة التي نشأ فيها كان لها أعظم الآثار في صقل شخصيته صقلا أخلاقيا دينيا متميزا مما جعله يتأثر تأثرا مبينا بالدين الإسلامي خاصة عندما يتعلق هذا الدين بالمشروعية الحقة في الدفاع عن أرض العروبة .

1) المرجع نفسه، ص:153 - 154.
2) المرجع نفسه، ص:16.

هذا، ولا يخفى على أحد إرادة المستعمر وعمله على تجرد الشعب من عقيدته و إنشائه معاهد خاصة لتكوين الرجال الذين يطعنون في الإسلام وظهور سياسة الدمج و القضاء على التراث القومي والعقائدي و عوامل أثرت في ضعاف النفوس فطغت عليها الأوهام كمل طغت الخرافات و الأباطيل على الدين حتى نجد الكاردينال (لافيجري)يصرح علينا حتى نخلص هذا الشعب ونحرره من قرآنه ، و علينا على الأقل أن نعتني بالأطفال لننشئهم على مبادئ غير التي شب عليها أجدادهم[1] ولعلهم أفلحوا في ذلك بعض الشيء .كذلك يكثر البكاء و النحيب على الشعب و على الواقع فيكثر الحديث عن الفضيلة التي ديست و الأخلاق التي ذهبت وهذه هي السمة العامة التي يشترك فيها جميع الشعراء فهم يمثلون مرحلة واحدة تتقارب فيها نظرتهم للأمور وتتخذ رؤيتهم الواقع أما البكاء على الفضيلة و ندبها ولم المجتمع الذي يحترمها فيظهر في قصيدة(مصرح الفضيلة)الفتى الوادي مفدي زكرياء حيث يقول:[2]

طبائعنا ،صالحات جليلة *** تعاف انحلال النفوس الذليلة
وتأبى رجولتنا الابتذا *** ل وأحلاسه ،والشعور الطويلة
تخنّثَ هذا الزمان و دبت *** خنافيس هيبي، يشيع الرذيلة!
ونافس آدام حواءَه *** دلالا،و غُنجا،و ذبح فضيلة!
وجرت الطواويس هذى السراويل،وهي القصار الطويلة
ولولا النهود لما كنت *** تفرق بين جميل و جميلة

ثم يذهب الشاعر إلى أن الأمة التي ينتشر فيها الشذوذ،ويكثر « الحشيش» وتعم دور الفساد و البغاء إلى الهلاك رائحة إلى الدمار، فيقول:[3]

1) الوناس شعباني: تطور الشعر الجزائري، ص:23.
2) مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص:77.
3) المرجع نفسه، ص:77.

وشاع الشذوذ وذاع الحشيش *** وأصبح للموبقات وسيلة
وتفرق أنافتنا القاذورات *** فلم تجد في صرفها أي حيلة
وأرض الجزائر أرض الفحول *** فأين الشهامة؟ أين الرجولة؟
ومن لم يصن حرمات البلاد *** وبدار النفايات..قد خان جيله

ثم إن الشاعر يغوص في المجتمع بحملته على المفاسد، فتصور الواقع المرير الذي آلت إليها الأسرة الجزائرية و هي المسلمة العربية فيتحدث عن الزواج بالأجنبي الذي شاع في زمانه فيقول:[1]

وبعض تزوج بالأجنبية *** وقال : مثقفة حضرية
تراقصني وتراقص هذا *** وذاك..ويعبثُ عن حسن نية
وتختال بـ»الميني جوب» دلالا *** وتستعرض المغريات الخفية
وتتركني.. لا جناح عليها *** وتذهب للسهرات النرجسية
وتقضي الليالي خارج بيتي *** وذلك من نعم المدينة
وإن ولدت..لست أدري لمن؟؟ *** كفى أنه من بني البشرية
أنادي صالح عند الصبا *** ح وأدعوه موريس عند العشية

ولا يكتفي الشعر بهذا التهكم، بل ينقد أخلاقيات الشارع الجزائري فيصف الطبائع الغربية التي سلكت نفوس أبنائهم المريضة، وهذا ما مثله في قواه عن المستهترات:[2]

ومنهن كالعنزباد الرذيلة *** يدلكن بالعار بين القبيلة
يشمرن ذيلا عن العورات *** يثرن فضول النفوس الدخيلة

1) مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص:91.
2) المرجع نفسه، ص:93.

ويسلكن غير الطريق السو *** يّ كالخابط ليل أضاع دليله
وفوق الطريق،وتحت الطري*** ق يهمن كسكرانَ ضلَّ سبيله
خنافسُ يكشفن ساقاً كأ *** نَّ القيامة قامت لوأد الفضيلة
جلابيبهن القصار الطوا *** لُ،كأحلامهنّ القصار الطويلة
بصائرهن كأبصارهـ *** نَّ مرنَّحة خاسئات ، كليلة
وأخلاقهن نّض ، كوجوههنّ *** بواسرُ، ممتقعات، عليلة
وأجسادهن قطاعُ غيار *** فكل القطاعات يكفي بديلة
إذا جفَّ ماء الحياء، بأنثى *** فلمَ لا تجفُّ الطباع الأصيلة!

على أن تهكمه هذا على العادات السيئة و المبتذلة و التي انطبعت على فئة من المستهترات لم يكن شاملا في نظره للمجتمع و أخلاقياته بل ليستثني من أبقوا على الفضيلة و ساروا على دربها،و ها هو يصف كيف تكون أخلاق المرأة الجزائرية الأصيلة فيقول:[1]

وحاشاك،حاشاك بنت الأصالة *** و من شرفت جنسها و رجالهْ
وصان شبابَك بنتَ الحلا *** ل،كما صنت عرضَك بين الحثالهْ
سلكت الطريق القويم المبينَ *** فجنَّبك العقل سُبُل الضلالهْ
سلكت الطريق القويم المبينَ *** جمال الحياة فصُنت حلالهْ
وأضفى عليك جلالُ الحياء *** فعفت حقارته و ابتذالهْ
وهالَك من جنسك الابتذا *** ل، فشرفْت ثورته و نضالهْ
وكنت لحواء في الخالدا *** ت، مثالا فريدا ،عدمنا مثالهْ

1) المرجع نفسه، ص:94.

فمثلك مَنْ يصنع الجيل شهماً *** ويرعى استقامته، واعتدالهْ

يذهب الشاعر كما رأينا في كثير من أشعاره إلى الشباب الجزائري وكيف ينبغي أن تكون أخلاقه بل يمكن أن يتجنب الكوارث التي نزلت عليه من حضارة الغرب، يقول :[1]

أمانا، من الخطر الداهم *** ومن معـوَل قاصف هادم

وزاغوا بهم ، دون إسلامهم *** إلى مذهـــب ليس بالسَّالم!

ودسُّوا شيوعية كالوبا *** كما يصـرف السّمّ للطاّعم

وقالوا: الرجوع إلى الدين رجعي *** وإن الحيـــــاة مع القائـم

فضلَّ الشباب البريءُ انخدا *** عاً،برقطاءَ في جلدها النّاعم

وَلجَ من الأرذلين انحرَافا *** عن المبدأ الخالد الدائـم

وبثَّ أساتذة في الشبا *** ب،رواسبَ مستعمر غاشـم

وقيلَ دكاتـــرة عاملون *** فويـــل لمســـتهتر عالـم!

إشارة إلى ما يقوم به بعض الأساتذة المتعاونون من محاولة إغراء الشباب والتأثير فيه وتضليله بإيديولوجيات مستوردة.

أما الأمة التي أصيب شبابها في أخلاقه، فما لها إلا أن تقيم مأتما وعويلا ولعل الشاعر في الأبيات ا لتالية يصور ذلك بنوع من المبالغة و التخويف: [2]

تفســـخ هذا الشباب وماعا *** وخـــــرّبَ أخلاقــه وتداعى

فـــــويل للجزائر والمسلمين *** إذا دنَّس النشء هذي الطّباعا

وكيف يصون الإصلاح نشءٌ *** وقد ســـاوموه عليها فباعا؟

1) المرجع نفسه، ص83.

2) مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص:84.

وكيف يُنير الطريق شبابٌ *** وقد طمس الرّجس فيه الشعاعا؟
وكيف يداوي المريض صحيحا *** وفي قلبه مرض السلّ شاعا
هو الخطر الجارف المستطير *** فإن تهملوه.. الوداع..الوداعا!!

ثم يذهب الشاعر إلى الشباب المتعلم ويحذرهم من الأفكار الإديولوجيات الغربية التي تهدم عقيدتهم وتزعزع أحلامهم فيقول:[1]

بناة الجزائر صونوا الشبابا *** ولا تأمنوا في الشباب الذئابا
ولا تهملوا أمر طلابنا *** فقد أصبح العقلُ فيهم يبَابَا
فكمْ شَوَّه فيهم عُقُولاً *** وكمْ أمعن المسخ فيهم خرابا

وحرّف من زاغ إسلامهم *** وأفقدهم وعيهم و الصوابا
وأصبح تفكيرهم قرمزيا *** دخيلا, إيمانهم مسترابا

ثم يشخص الشاعر بعد هذا مرضا اجتماعيا خطيرا أصاب الأسر الجزائرية وهو عجز الشباب عن الزواج لغلاء المهور مما دفعه إلى الزواج بغير المسلمة يقول:[2]

وأجلى الشباب غلاءُالمهور *** فلاذ -على حــــبّه - بالنفورْ
وفضل ماري على مريم *** وريتـــــا على زينب والزهورْ
وطارمع الريح من وكره *** وأفلتَ من ظلمـــات القبورْ
وتحلَبُ في الجبن كالبقرا *** ت، فإن غاض منها الحليب تبورْ

1) المرجع نفسه، ص:86
2) المرجع نفسه، ص:95.

وبالمال تقذف طوعا وكرها*** بأحضان من نفضته الدهورْ

فويل للجزائر ،جيلا فجيلا *** إذا لم تحطّم غلاء المهورْ

وتَعسَ شبابٌ عديم النُّهى *** على رجْس عاداته لا يثورْ!

و قد خرج من كل هذا بعض الشباب الأصيل الذي تأصلت في أعماقه الأصالة الإسلامية والأخلاق النبيلة ولم تزعزعه رياح المفاسد , رغم قوتها يقول: (1)

وألقت من قفص الاتهام *** شباب أصيلٌ، وفيُّ الذمامْ

شباب تطهَّر فيه الضميرُ *** فأعرضَ من شهات الطَّغَامْ

وأُشْربَ من نبع إسلامه *** وفلسفة الدّين روح النظامْ

ولم يتنكَّر لأمجاده *** وأجداده الخالدين العظامْ

ولم يَكُ بالتَّبعيات يُغزَى *** ويجري وراء السحاب الجُهامْ

ولا بالمذاهب يُغرى فتُشرى *** ببخس عقيدته كالسَـوامْ

ولم تختَطفْه مُراهقةٌ ** ثقافيةٌ ضلَّ عنها الفطَـامْ

شبابٌ عليه مَناطُ الرَّجَا *** فمنكُم، ومني... عليه السـلامْ

فما يحمله وراء هذا الوضع المزري الخطير الذي ما انفك ينخر أخلاقيات المجتمع الجزائري المسلم وتقاليده المستمدة من تعاليم الإسلام السمحة، وأصبح الحديث عن الفضيلة التي ديست والأخلاق التي ذهبت رمزا للبكاء عليها ولوم المجتمع الذي لا يحترمها فيقول مفدي: (2)

ويلتاه خذ أيدي من وهاد *** هذي أدمعي وذاك فؤادي

1) المرجع نفسه، ص:96.

2) عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، صك 659.

خليا ذكر سؤدد قد انقضى *** تحت حياة كل عصر تلاد

و اشهد مصرع الفضيلة كلى *** تحت أقدام قارعات العوادي

يقف الشاعر في نهاية الإلياذة وقفة إجلال أمام خالق الكون طامعا في التوبة وداعيا بإذنه للمغفرة و هوالغفور الرحيم و مستلمهما قول الشاعر:[1]

فيا ربّ قد أغرقتني ذنوبي *** وأنت العليم بما في الغيوب

أتوبُ إليك بإلياذتي *** عساها تكفّر كلَّ ذنوبي

عصيتُك علماً بأنّك تعفو *** على المسرفينَ فهانت خطوبي

إنها الإشارة إلى قوله تعالى:﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا**﴾[2]

ثم يردف قائلا:

ولولا صفاتك: رب غفور, رحيم *** لضاقت علي دروبي

عصيتك لما خلقت الجمال *** وهجت به نصبي ولغوبي

و يأتي الشاعر كذلك باحتجاج يدل على تمسكه بتعاليم الدين, و نكتشف ذلك بتفحصه للأحاديث الشريفة فمثلا قوله:

وإن أنا لم أعص *** أهلكتني وأبدلتني بطروب لعوب

هذا البيت نعتٌ لقوله صلى الله عليه وسلّم: **(وَالْذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَ لَجَاءَ بِقَوْمٍ غَيْرُكُمْ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرَ لَهُمْ)**[3]. ومعنى الحديث أن الله سبحانه وتعالى قضى في سابق علمه أنه لا بد من وقوع الذنوب، حتى تظهر آثار مغفرته ورحمته سبحانه، واسمه التواب الغفور والعفو؛ لأنه جل وعلا لو لم يكن هناك ذنوب لم يكن لمعنى العفو الغفور

1) مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص:101.

2) سورة الزمر، الآية:53.

3) رواه مسلم من حديث أبي أيوب رضي الله عنه.2/186، مادة (ذنب)

والتواب معنى. فالعصيان الذي بعده توبة. فيه مغفرة أكيدة، فقد روى ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(التَّائِبُ مِنْ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ)[1] . ومعنى الحديث : أن العبد إذا أذنب ذنبا ثم تاب منه توبة نصوحا وأقلع عنه وندم واستغفر ولم يعد إليه تاب الله عليه ، وعامله معاملة من لم يذنب ، بل وبدل سيئاته حسنات وأحبه وجعله من عباده المتقين ؛ لأنه إنما تاب إلى ربه وأناب لمحبته لله وحرصه على رضاه وخوفه منه ، وتلك صفات المتقين .

ثم يختم الشاعر بقوله:

فيا رب, ما حيلتي في الهوى و فيك؟ ***إذا لم تكفر ذنوبي بهذا الاستغفار

و هذه التوبة لا تصدر إلا من نفس تخاف مقام ربها يوم يبعث الناس, إنها صفة من الصفات الحديثة التي تلبس الشاعر مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية.

فالتشبث بالأخلاق الفاضلة كان أساس كل عمل ثوري أيد له النجاح ولذلك اعتمدت التيارات الإصلاحية في الوطن العربي على ذهاب الجانب الروحي قبل كل شيئ .وفي ذلك يقول مفدي زكرياء: [2]

ولولا استقامة أخلاقنا ** لما أخلص الشعب يوما نضاله

فتأثر شاعرنا بالقيم الأخلاقية الإسلامية كان إذن ضرورة حتمية للوضع الذي عاش فيه حتى يستعد على أثرها خوض المعركة الدينية النضالية من معناها الحقيقي بكل صدق ووفاء.

1) أخرجه ابن ماجه والطبراني في المعجم الكبير، 1/ 283، مادة (توب)
2) عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحيث، ص:659.

الخاتمة:

جنّد مفدي زكريا (1913م- 1977 م) شاعر الثورة الجزائرية حياته و قلمه ولسانه في محاربة الإستعمار الفرنسي الغاشم؛ فهو صاحب النشيد الخالدة «فدا الجزائر وروحي ومالي» الذي نظَمَه في سنة 1936م، وهو مؤلّف النشيد الوطني الرّسمي للجزائر «قسماً»[1] فكان بذلك ثورة على الظّلم الإستعماري الذي فتّ العظم فألهب المشاعر و أيقظ الهمَم وشدّ من أزر شعب توّاق إلى الحرية المغتصبة مخاطباً فرنسا الاستعمارية وجهاً لوجه بلهجة فضّة فضاضة استهانتها بمصير الشعوب المستضعفة،فكان فمن أهمّ مفرداته : قسماً ، جند، الجبال،حياة ،ممات، أشلائنا، الحق، فصل الخطاب،ثرنا....فاشهدوا وغيرها،وهي بذلك تمثّل المعجم اللغوي الذي يتحرّك الشاعر في جنباته، ليتناول ما يؤدّي وظائف مقاصده في اختيار الإرادي وغير الإرادي من تلك الألفاظ، ومقدار صلتها بمقتضيات الموضوع الذي يطرق، وحسن توظيفها في الدلالات والمواقع والعلاقات المعبّرة عمّا في النّفس من المرامي والأبعاد والإشارات ودقائق المعرفة الإنسانية، بما يكفل الفصاحة والصحّة والنجاح في التعبير والدقّة والعطاء على اعتبار أن الصورة الشعرية هي رسم قوامه الكلمات المشحونة بالإحساس والعاطفة،فهي في نشيد مفدي زكريا صادقه طافحة بالبيّنة كما يدلّ عليه فصل الخطاب، وهو قدر من يحمل النّفس على المكروه على النّحو الذي انتهى إليه «قطري بن الفُجاءة» ممثّلاً لتواصل من العطاء الفكري والتقليد التليد في سلوك عربيّ مسلم أبيّ متّخذاً سبيل الموت طريقاً إلى الشهادة والنّصر المُبين. فاطلُبِ المَمات تُهَبْ لك الحياة، وهو ما جسّده الشّعب الجزائري في أبهى صورة، من حيث استحالت ثورته المجيدة مصدر إلهام لكلّ الشعوب المُستضعفة والتوّاقة إلى نيل حرّيتها باذلةً في ذلك النّفْس والنَّفيس.

1) الهادي درواز، كتاب الأناشيد الوطنية، ص:131.